علاقة اللاشعور بالأثر الفني عند لاكان

د. صلاي عباس

أ قسم الفنون كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس

تأثر جاك لاكان بنظرية فرويد المتعلقة باللاشعور، وكيف أن هذا الطبيب النمساوي بحث في ثنايا الأعمال الفنية رابطا إياها بالتحليل النفسي، كما بحث لاكان أيضا عن ميلاد منهج النقد النفسي في مجال أدبي خالص أي بعيد عن الطب والمرضى والعلاج، وذلك بتألق شارل مورون حين فصل بين علم النفس والفن،وجعل من الأول سبيلا مفسرا ومحللا للثاني.

كيف استثمر لاكان علم النفس ونظرية التحليل النفسي؟ وهل سعى فعلا إلى ربط علاقة بين التحليل النفسي والدراسات اللسانية؟ وهل اهتم بالنتاجات الفنية من أجل تفسير مكاسب النظريات البنيوية وما بعد البنيوية؟

دعا لاكان إلى إعادة قراءة فرويد ولم ير مانعا من تأويل نظريته في ضوء نظريات اللسانية والأدبية الجديدة، من أجل تجاوز النقد النفسي التقليدي العاكف على تحليل نفسية المبدع تحليلا نفسيا،خاصة أنه ثبت "أن النص الفرويدي نص منفتح قابل للاستثمار في الخطاب النقدي بشكل أكثر فعالية، كما ثبت أن العلاقة بين التحليل النفسي والأدب علاقة ضرورية"1.

بدأ لاكان بدعوته إلى ضرورة الفهم الصحيح لأفكار فرويد، خاصة كيفية دمج معايير التحليل النفسي بقواعد اللسانيات ومبادئ البنيوية، وفكرته القاعدية التي يبني عليها تحليلاته هي"أن اللاشعور هو بنية في حد ذاتها، لها تركيبة شبيهة بتركيبة اللغة"2. وبالتالي اهتم لاكان بالنص في إطار فكرته التي تدمج البنية اللغوية باللاشعور، وقد اعتبر النص سلسلة دالة ذات طابع رمزي، تحكمها آلية التكرار وتُعبّر عن نوايا اللاشعور"غير أن قراءة لاكان لم تكن أدبية بالدرجة الأولى لأنه تناول علاقة الذات المتكلمة باللغة التي تتحدث بها"3، وهي فكرة موجودة عند **ميشال فوكو** الذي يقول" الإنسان هو المتكلم به أثناء إعادة الشيء والتذكر وليس هو الذي يتكلم"4.

يعتبر لاكان اللاوعي أنه مبني كبناء اللغة "لا ينظر لاكان إلى اللاوعي كمعنى ثابت ويرفض اعتباره دليلا **signe** بالمعنى السوسيري، لأن اللغة بالنسبة له ليست نظاما من الأدلة، بل هي نظام من الدوال **signifiants** "5،هذا يعني أن الإنسان عند لاكان تحكمه اللغة، وأنه لا ينطق بالعبارات والألفاظ عفويا، إنما توجد دينامية نفسية تتحكم في الكلمات المنطوق بها "فاللغة عند لاكان هي ظاهرة بنيوية وأن اللاشعور الذي يتحكم برغباتنا هو من هذه البنية نفسها"6، وكأن لاكان ينظر إلى الكلمات المنطوق بها، وإلى الرغبات والمكبوتات أنها تصدر من

منبع واحد.هذا يعني أن الفكرة الرئيسية التي يناقشها لاكان هي أن اللاشعور مبني كاللغة، ما معنى ذلك تحديدا؟

يحذف لاكان أحيانا كاف التشبيه، ليؤكد على أن اللاشعور هو اللغة، فالحلم مثلا نص يُقرأ، والنص الظاهر يشير إلى النص الباطن، عبر أفكار الحلم نفسها، هو إبهام لنسيج نموذجي حافل بمعان متشعبة، من حيث أن التنسيق لا يكون عفويا، وإنما يخضع لقانون التكثيف والنقلة. ماذا يقصد لاكان بهذين المصطلحين في سياقهما النقدي والفلسفي؟

تقوم النقلة والتكثيف بمغافلة المراقبة للتعبير الصحيح عن الرغبة المكبوتة، أي يخدع المراقب (الأنا الأعلى) عن طريق استبدال موضوع حقيقي بموضوع آخر، فتحصل النقلة للمشاعر، تُعبّر عما يخالجها بحرية أكثر، هذا يعني أن للغة قوانين مثل :الفعل في زمن الماضي، أو الحاضر، الضمير المستخدم كالمخاطب أو المتكلم، وغيرها، على أساس ترابط المعاني فيما بينها بوصال مجازي، ثم تُستخلص المعاني حسب أصول الكناية، فمثل ما للغة مجاز وكناية، فإن للاشعور تكثيف ونقلة، فالتكثيف اللاشعوري يقابل المجاز اللغوي، والنقلة اللاشعورية تقابل الكناية اللغوية، وبالتالي يستنتج لاكان أن اللغة مركبة وكذلك اللاشعور مركب." تتكون اللغة من مجاز وكناية،أما اللاشعور فإنه يتكون من التكثيف والنقلة،يعني ذلك أن التكثيف اللاشعوري يقابل المجاز اللغوي والنقلة اللاشعورية تقابل الكناية اللغوية"[7] .

فالنص اللاكاني له معنى ظاهر وهو الدال وآخر باطن وهو المدلول، أما الكناية في هذا المقام فإنها تقوم بمغافلة الأنا الأعلى عن طريق الاستبدال، هي تعمل على ترجمة الرغبة. أما المجاز فهو آت من الواقع، ثم يذهب لاكان بعد ذلك معتبرا "الدال هو الدليل نفسه وقد بيّن أن ليس هناك في لغة اللاوعي تمييز بين الدال والمدلول"[8].

كذلك اكتشف لاكان قوة الدال الذي أثبت به الوظيفة الرمزية وضرورتها لوجود الإنسان، فتتجلى هاهنا ثمة علاقة بين العالم الرمزي الاستيهامي، وبين العالم الداخلي الذي اكتشفه فرويد "إن المكانة التي أشغلها كذات الدال مغايرة لتلك التي أشغلها كذات المدلول، هذا يعني أن الأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كنت عندما أتكلم عن نفسي، نفس الشخص الذي أتكلم عنه"[9] .

يلعب التحليل النفسي دورا هاما في إخراج اللاشعور من دائرة الكبت إلى حيز الفعل، عبر تسلسل كلامي حافل برغبات مكبوتة، وبالتالي تغدو الشخصية عند لاكان تركيبة لغوية يقاومها الإنسان من أجل مواصلة تمويه ذاته بكل رغباتها، وبما أن الحديث مركَّز هاهنا عن اللاشعور فالإنسان في كثير من الأحيان لا يعرف فيما يرغب.

كان **دي سوسير** يرى أن المعنى يتولد من الصورة الصوتية، وهي الدال إلى الفكرة المجردة، وهي المدلول، إلا أن لاكان يختلف

معه مُبيّنا أن"الدال هو الذي يقود قوانين بنيته، فتدفُق الكلام والمعاني غير مرتبطة بالدال، لأنها تستخرج من أصل ارتداد الدال إلى دال آخر، والمعاني لا تستنفذ بالوصول إلى معنى نهائي، لأن ذلك يفترض توقفا زمنيا لاستمرارية اللغة لذلك يقول لاكان:بأن المدلول النهائي محذوف، لأنه في النهاية يرتبط في حقل لا يُقاس وهو الواقع"[10].

أكد لاكان على مركزية الدال وقوته، فهو رمز يتحرك مُموَّها، عبر زمرة من الدلالات، كل دال منها يتميز عن الآخر بمقارنته بما سيأتي من دال بعده،" واللاشعور محاك من الدلالات التي تقتبس التصور النظري محاكية في تلك اللغة التي نتكلمها"[11].بينما المدلول اللاكاني فهو بمثابة المكبوت الذي سرعان ما يعود مبررا وجوده بالعديد من الدلالات، الـتي تكون حلقات السلسلة عبر الاستعارات والمجازات.

رفض لاكان التحليل النفسي الكلاسيكي وأحكامه القاسية، ليس على نفسية المبدع وحسب، وإنما على كل ما يتعلق بالمبدع، باعتباره إنسان يتصل بعقائد وأعراف وقوانين المجتمع، مما جعله يقرر "اللغة هي الشرط الأساسي للوعي الذاتي، والإنسان بحاجة إلى وسيط بينه وبين الأشياء، بينه وبين العالم، بينه وبين ذاته، اللغة هي التي تسمي الأشياء"[12]،ذلك أن الذات عند لاكان متكلمة، أي تبادر بنطق كلمات معبرة، والمحلل/الناقد يقوم على اكتشاف اللاشعور من خلال الإفصاح اللغوي لأنه – أي اللاشعور- مركب تركيبة لغوية.

إذا كانت الأنا الديكارتية تتلخص في عملية الوجود عبر التفكير، والأنا الهيغيلية هي تطور تاريخي تصبو للوصول إلى الحالة المثلى والمعرفة المطلقة، فالأنا عند كل من فرويد ولاكان اللذان اتفقا على الأسس البنيوية التي يرتكز عليها مفهوم الذات، وهو كَونُ الإنسان منشطر على نفسه في قسم لاشعوري وآخر شعوري، يربطهما خيط وبنية ترتكز عليها قاعدة اللغة.

فالكلام عند لاكان وسيلة وحيدة لمعرفة بُنية الذات، فاللغة تعطي المعاني المرجاة للتعبير عن الذات عبر المجاز والكناية، هذه التركيبة الفوقية التي شدد عليها لاكان تغطي لغة تحتية.هذه الأخيرة تعتمد على آليتي النقلة والتكثيف، وهو يقصد بذلك أن الذات الشعورية هي المُعبّرة الوحيدة عن الحقيقة الكامنة في كل شخصية بخلاف، ديكارت الذي ركز الوجود حول الأنا الوجدانية،"ذلك أن لاكان انطلق من اكتشاف فرويد الذي يعتبر أن اللاشعور لا يخدعنا ولا يقول إلا الحقيقة، فالأنا تخدعنا عن أنفسنا، وعن حقيقة رغباتنا، وتُغيّب عنّا الرؤية الصحيحة"13.

فالمحلل النفساني، وحتى الناقد، ينشط في ميدان اللغة، فيتعامل مع الأفكار والتخيلات والمشاعر والرغبات، فالكلام يلج دائرة الوعي عبر البنية اللغوية التي تشكله، إذ يوجد من الكلمات ما هو عابر وروتيني، لا قيمة له ولا وزن، وهناك ما يُصعب قوله، وإذا قيل، يؤدي إلى مفترق تتوزع منه معانٍ عديدة، تُعبّر عن الذات نفسها، ثم إن لاكان يفصل بين الدالً

عن المدلول، بينهما جدار لا يمكن اختراقه.هذا يعني أن أي دال آخر لا يمكن أن يفي المدلول حقه من التعبير.كيف يمكن استخراج المعنى من خلال الكلام؟

"كل كلام لابد أن يخضع لانقسام داخلي مابين نطق ومنطوق، حيث أن التفاوت بينهما يُولّد معنى جديدا، يمكن أن يدخل في تركيبة لغوية جديدة وهكذا..وقد أكد لاكان عندما تحدث عن حقل الكلام بأن هناك ذات النطق وذات المنطوق."14 يربط لاكان علاقة بين اللاشعور والكلام، أي بين اللغة والرغبة اللاشعورية، يقول في محاضرته (الطب والتحليل النفسي):"ليس هنالك من لاشعور بمجرد احتمال وجود رغبة لاشعورية، قد تكون مغلقة ثقيلة أو حتى حيوانية، أو نابعة من الأعماق التحتية، بدائية في مصدرها، وتطمح للارتفاع إلى مستوى الشعور، بل على العكس إذا كان هناك من رغبة فلأن هنالك لاشعورا، أي أنه يـصعب على الذات أحيانا التحكم ببنية اللغة وبتأثيراتها، حيث لابد أن يفلت منها شيئا ما، وهو إذا ما قسمناه على مستوى اللغة، يبدو أن شيئا ما يتعدى الشعور، وفي هذا الحقل الإضافي تكمن وظيفة الرغبة "15.

الرغبة اللاكانية لاشعورية، وموضوعها يلج ضمن تركيبات هوامية متعددة، وهكذا يستنتج لاكان أن اللغة هي التي تؤسس وتُكوّن اللاشعور.ثم إنه يفصل ويرفع كل لُبس عن الرغبة، والحاجة، والطلب، وذلك من أجل أن يتجنب المحلل الخلط بين هذه المصطلحات "يفرق لاكان بين الرغبة

والحاجة والطلب، فالحاجة تؤمّن الاشباعات اللازمة ذات أصل بيولوجي، متطلبات الحياة والبقاء والاستمرار، أما الرغبة فهي نقصان لموضوع في الأساس، ولا يمكن لأي موضوع حقيقي أن يستعيده، فالرغبة تكمن في الفكرة وليس في إكفاء الحاجة فهي قبل الحاجة وبعدها "[16].

فما بال النزوة؟ وهل تصل إلى هدفها وهل يمكن إشباعها؟ تقوم الحياة النفسية على دعامات جوهرية –عند فرويد- من هذه الدعامات، مبدأ اللذة، ومبدأ الواقع ومبدأ الثبات، فمبدأ اللذة مثلا "يؤدي إلى تحرير الشخص من التوترات عبر تمكينه من العودة إلى الحلم أو أحلام اليقظة أو الإبداع الخيالي."[17] فيسعى مبدأ اللذة إلى إشباع النزوات مباشرة وفي الوقت نفسه يجب تجنب المراقبة أي الأنا الأعلى،"فالنزوات الجنسية تتواءم تجلياتها الدينامية مع الليبدو، وفي حالة انحصار نزوات الأنا وهزيمة النزوات الجنسية يتشكل العصاب"[18].فمبدأ اللذة هو الذي يحرك النزوة في اندفاعها.

هذا فيما يتعلق بالنزوة عند فرويد ،أما فيما يخص النزوة اللاكانية، فإن لاكان يؤكد على أن النزوة قوة دائمة، وفي اندفاعها تطالب الإشباع الذي لا و لن تحصل عليه، فالنزوة اللاكانية إذن، لا تُلبى ولا يُهدئها إلا الموت، وهو بذلك يتفق تماما مع فرويد " فالنزوة عند فرويد لا تحقق الإكفاء إلا بالكف عن بلوغ موضوعها، أما النزوة عند لاكان فهي عبارة عن تركيبة

نفسية ما بين البدنية والجهاز النفسي تخضع لمبدأ اللذة الذي يحركها لبلوغ الهدف، إلا أنها تصطدم بمبدأ الواقع فيستحيل عليها ذلك."[19]

يثري لاكان ويتطرق إلى الذات والأنا وعلاقتها بالكلام، فإذا كان الفعل اللغوي وسيلة تعبير عن الذات، وإذا كان الكلام المعبر والمليء هو الذي يأخذ صفة الفعل، فما موقع الأنا المخاطبة؟ هل تعبر فعلا عن مكنون الذات أم أنها تضللها؟ وما الفرق بين الأنا المخاطب والأنا الفعلي؟

هناك على مستوى الشخصية الإنسانية الذات الشعورية عبر قولها، أي عندما تتكلم، والذات اللاشعورية المفترض إدراكها، فكيف نشأت الأنا وكيف تكونت؟ ليست الأنا عضوا يُخلق مع الإنسان ويتطور، وإنما الأنا هي نتيجة تصور يتكون عبر المراحل والصدف والمواقف والأحداث التي يمر بها الطفل، هذا الأخير، الذي كانت بدايته عبارة عن مضغة، كتلة من لحم ودم، ثم ينمو ليصير إنسانا يُشار إليه باسمه. فبفضل مخاطبة الآخر له واعترافه به تنشأ و تتكون أناه،"ومرحلة الطفولة عند لاكان هي المرحلة الأساسية في تكوّن نواة الأنا..هذه الأخيرة إذا محورها الجسد الذي تعكسه المرآة، أما الأنا المخاطبة لا تتكون نواتها إلا بعد مشاهدة الطفل لصورته في المرآة ويتماهى بها. يرى لاكان أن الذات تتكون من هوامات مترابطة في سلسلة دالة كلامية"[20].

تقوم الذات المتكلمة أو أنا المخاطب بنقل المعارف والأفكار والمشاعر بشكل قابل للإدراك، فاللغة هي التي تحقق كينونة الإنسان بوصفه أنا، مثلما يميز لاكان بين اللغة بوصفها

نابعة من وعي الأنا واللغة، اللغة بوصفها نابعة من لاوعي المتكلم. هذا يعني أن اللغة تكون واعية إذا اشترطت وعي عن من يتكلم بها، فتُستنتج اللغة العادية، المتعارف عليها، وتنحو اللغة المنحى الجمالي حين تتصف بدوال تشير إلى مدلولات أخرى، وذلك موجود في اللغة الفنية أو الأدبية، فتكتسب كينونتها بوصفه أنا ولاوعي بوصفه آخر.

كيف يربط لاكان بين الذات واللغة و الأنا؟ ترغب الذات وتتمنى وتشير، وتلمح إلى هذه الرغبة " ترابط الأنا بالذات هو تشابك لا يمكن وصفه"21، وكأن الذات هي جزء من الأنا (الجزء اللاشعوري)، وقد قام كل من فرويد ولاكان بشطر الأنا إلى شطرين، أحدهما شعوري وآخر لاشعوري، وهكذا فإن الذات ترغب، والكبت يعمل عمله، بينما تتوه الأنا في أوهام. يتوصل لاكان إلى أن "اللغة هي شرط اللاشعور، فاللاشعور هو الحصيلة المنطقية للغة،لا يوجد بالفعل لاشعور من دون لغة"22 .

يخلص لاكان إلى أن العلاقة بن الذات والأنا ليست علاقة مباشرة، إنما تمر عبر التسلسل اللغوي، المتمثل في مواضيع الأنا، ذلك أنه درس ظاهرة اللغة من خلفية سيكولوجية، توصل من خلالها إلى رباط مزدوج، يصل النفس بالطاقة التعبيرية، مما أدى إلى تألق تيارات نقدية تدعو وتلح على الدراسة النفسية للأدب والفن.

الهوامش:

1) المودن حسن،لاوعي النص في روايات الطيب صالح،قراءة من منظور التحليل النفسي،تقديم محمد براءة،المطبعة والوراقة الوطنية،مراكش،ط1،2002،ص 30 .

2) بركات وائل والسيد غسان وهارون نجاح،اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة،جامعة دمشق،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوريا، 2004، ص 120.

3) لحمداني حميد،النقد النفسي المعاصر،تطبيقاته في مجال السرد، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية،مطبعة النجاح الجديدة،1991 ، ص 20.

4) المرجع نفسه، الصفحة نفسه.

5) المودن حسن، لاوعي النص في روايات الطيب صالح،المرجع السابق،ص 31.

6) عدنان حب الله،التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان مركز الإنماء القومي،د ط،د ت،ص 41.

7) م ن،ص 90.

8) المودن حسن ،لاوعي النص في روايات الطيب صالح،المرجع السابق،ص32.

9) م ن، ص ن

10) عدنان حب الله،التحليل النفسي من فروبد إلى لاكان،المرجع السابق،ص ص43–44.

11) بركات وائل والسيد غسان وهارون نجاح،اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة، المرجع السابق،ص 120.

12) م ن، ص126.

13) عدنان حب الله ،التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان، المرجع السابق،ص ص 89–90.

14) م ن،ص 59.

15) م ن ،ص ن.

16) م ن، ص ص 69–70 (بتصرف).

17) الأزدي عبد الجليل،أسئلة المنهج في النقد العربي الحديث،المرجع السابق،ص 20.

18) م ن، ص 23.

19) عدنان حب الله ، التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان ، م س، ص 66،67 (بتصرف)

20) م ن، ص ص 90–91 (بتصرف).

21) م ن، ص 118

22) م ن، ص 119.